العيد بين المتنبي وشوقي

... كانت ذاكرتنا الجماعية موزعة بين شقين: أحدهما يشغله النص المقدس بأجوائه وأصدائه، بإعجازه وقسريته؛ والآخر تتسرب إليه لوامع الشعر البليغ بحكمته وفتنته، بحلاوة بشريته ، ولأن هذه الذاكرة توشك على الارتجاج والخض، فإن مكانة الشعر تتقلص في وعي ابن اليوم، ومحفوظه يتضاءل، ليس له سدنة يقتاتون به ويقاتلون عليه، ولا أعرف إن كانت الحياة تطاق بدون الشعر الجميل الذي يورق في الكلمات المبدعة، ويمارس فيه الإنسان حريته في إعادة خلق اللغة وتثبيت صورة الوجود. وربما كانت مناسبات الأعياد مؤاتية لمراجعة موقف شاعرين عظيمين في العربية: أحدهما جسد حلم العصور القديمة في البطولة والعزة، ومثل عالمها بكل كبريائه وأخطائه؛ والثاني افتتح العصر الحديث بقصائده الإعلامية، وأشعاره الجماعية. وهما

أبو الطيب المتنبى (٣٠٣- ٣٥٤هـ) وأحمد شوقى (١٨٧٠- ١٩٣٢م)، وبينهما قرابة ألف عام من خبرة الإنسان وأحداث التاريخ.

أما المتنبى فلا يكاد مثقف عربي يمر أمامه ذكر العيد حتى ينشد مطلع قصيدته التى نفث بها عن مواجده وإحباطاته عند هروبه من مصر منتقما من أميرها كافور الإخشيدي ولاعنا المصريين المذعنين لحكمه ، وربما كان من الأنسب لذكرى العيد أن نقتصر على الجزء الأول من القصيدة ونرجئ مناقشة المتنبى في أشعاره العرفية والعنصرية إلى وقت آخر؛ فحسبنا ما تحفل به الحياة العربية من تنابذ وشقاق وفتن متقدة. ولنتأمل أبيات الحكمة التى صارت أمثالا تعبر عن مكنون الوجدان الجماعى وترصد طريقة رؤيته للزمن وفهمه لحركة الوجود. يقول المتنبي في هذا المطلع الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد

ولأن الشعر هو الذي يجدد شباب اللغة ويعيد إليها الحيوية والنشاط، بعد أن تتجمد على الأفواه وتجف عن الصفحات، فهو الذي يكتشف بواعث الكلمات وأسباب تشكيلها. وكلمة العيد تأتي من جذر "العود" لتشير إلى دورة الزمن ورجوعه في حساب

المواقيت إلى نقطة محددة، وهو عدد قد يكون حميدا إن جاء بخير، وقد يكون أليما إن آذن بتكرار المكروه. هنا يأتي التساؤل الشعري عن أي الأحوال عاد بها العيد: أيجر ذيول الماضي بخيبته وإخفاقه، أم يحمل معه وعدا بالتغيير والتجديد؟ وكأن الزمن هو الذي يصنع أقدارنا ويشكل مصائرنا، وكأننا مجرد مشاهدين لمأساة الحياة وملهاتها ، لكن حلاوة النظم لا تأتي من تساؤل يعرف الشاعر والقارئ – طبقا لتجربة كل منهما – إجابته، بل تأتي أساسا من هذا العبث الجميل بالكلمة وتكرارها، ثم من هذه الصياغة اللعوب بحروف العيد واكتشاف معناها الأصلي، ثم من هذا التقابل الطريف بين ما يمضي وما يجد في حركة الزمن، وما يقع بينهما من رجعة تتأرجح بين العودة إلى نقطة الانطلاق أو التجاوز إلى مختلف الآفاق.

وإذا كان أنضر ما في الشعر هو قدرته على أن يحتفظ للإنسان بطزاجة عواطفه ويبعث الحرارة في دقات قلبه فإن الحديث عن الأحباب، خاصة عندما يبتعد الإنسان عنهم، يصبح مصدر الروح ومقياس الفرح. وها هو أبو الطيب يرى أحبابه بعيدين جدا عنه، تفصله عنهم بيداء رهيبة، تجعله يقذف العيد بدعوة أشد رهبة، كي يمعن في البعد. وهنا تسهم الصياغة في التشكيل المكاني

للزمان، فهو إذ لا يظفر بقرب أحبابه في العيد، لا يرى له معنى ولا فرحة بدونهم، فيتمنى للعيد أن يشتط به المكان مسافة متطاولة تجمعها كلمة "بيد" وهي على وجازتها المقابل الدلالي والوجداني للعيد المقفر من الأحباب. وليس لنا أن نسائل الشاعر عن كنه أحبابه، فله أن يحب ما شاء، وكل يغنى على ليلاه، إذ إن هذا الإبهام المجازي الجميل هو الذي يسمح للشعر أن يصدر عن تجربة فردية فيشبع الحس الجمالي والحيوي لدى أفراد مختلفين تماما عما كان عليه الشاعر من قبل دون أن يفقد هامشه من الصدق الحقيقي ، غير أن المتنبي لا يتركنا ننعم بهذا الإبهام، فسرعان ما يبادر إلى نفى أن يكون له أحباب من النساء أو الرجال، فهو طالب مجد فحسب عندما يقول:

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفي معانقة
أشباه رونقه الغيد الأماليد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئا تتيمه عين ولا جيد

وأرجو ألا ينزعج القارئ غير المدرب من الشطر الثانى فى البيت الأول فهو يصف ناقته الشديدة الضامرة بقلة الشعر وطول الرقبة، ولو كان المتنبى يركب السيارة أو الطائرة لما فاجأتنا أوصافهما حينئذ؛ فهذه بقايا العصور القديمة، وما يبدو لنا الآن خشنا متكلسا بعيدا عن الحياة قد كان شديد الحيوية والمقاربة للتجربة اليومية فى زمانه. وميزة الشعر أنه يؤسس الذاكرة الإنسانية، يضيف إلى تجربة اليوم مظاهر تجارب الأمس ورحيق خبرتها، ويلعب دورا بالغ الأهمية فى صناعة المخيال وتعزيز قدراته ، ولا يقتصر ذلك على معرفة الحفريات القديمة فى اللغة والصورة، بل يرتبط بشكل أساسى فى تكثيف كفاءة هذا المخيال لابتداع أشكال جديدة فى المستقبل. فالذى ينغمس كليا فى تجربة اليوم دون تمثل عميق لما سبقها من تجارب لا يستطيع أن يستشرف آفاقا جديدة فى خبرات المادة والروح، بالفن أو العلم، فكلاهما ينطلق من بوتقة الإبداع. وإذا كانت الناقة وأوصافها قد أشعرتنا بحركة التاريخ فإن المرأة ومفاتنها فى الجيد والقوام والعين لا تزال تصيب قلب الرجل وتفرى كبده، إن لم يكن مثل المتنبى قد تصحر وتصخر وتبتل لشهوات المجد السياسي والأدبى حتى يقول لنا:

يا ساقيي، أخمر في كؤوسكما

أم في كؤوسهما هم وتسهيد؟

أصخرة أنا؟ ما لي لا تحركني

هذي المدام ولا هذي الأغاريد؟

إذا أردت كميت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

أني بما أنا شاك منه محسود

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا

أنا الغني وأموالي المواعيد

ولا بد لمن يريد أن ينعم بشعرية هذه الأبيات أن يتلوها عدة مرات ، فكل ما فيها عجيب ومبدع: من النداء والسؤال، إلى الشرط والخبر، وكلها تصب في تقنية تعبيرية درامية هي قوة المفارقة ولذعة السخرية ، فهو يتجه بالخطاب إلى السقاة وهما اثنان في تقاليد الشعرية الميثولوجية، يتساءل عما في كؤوسهما: أهو خمر تجلب الفرحة والسعادة كما هو شأن الشراب عند متذوقيه، أم أن هذه الكؤوس مترعة بالهم والغم كما تخبره بذلك محاولاته في السلوى والنسيان؟

مفارقة الخمر والحزن هي العلامة الأولى، يتلوها تساؤل غريب يبتلع في جوفه مقولة شاعر أقدم "لو أن الفتى حجر" بتحوير طريف: فإذا كانت الخمر لا تقوى على تحريكه، وإذا كانت الأغاني والأغاريد لا تطربه وهو الشاعر، فهل قد من حجر؟ لكن السبب الحقيقي لا يكمن في طبيعته الجامدة، بقدر ما يتمثل في الزمن الخؤون، إذا أعطى بيد سلب أعز شيء باليد الأخرى؛ فهو إذا وجد صافي الشراب افتقد وجه حبيب النفس، وتتجلى سخرية الأقدار عبر هذه المفارقة الثانية.

ويتصاعد إيقاع التضاد العجيب ليشمل موقف المتنبي كله من الحياة وما لقي منها ، فهو شاعر العربية الأكبر، وهو في نظر نفسه، وفي تقدير الآخرين، جدير بأن يلقى من التكريم والعطاء والمجد ما يكافئ هذه المكانة ، غير أن ما تجره عليه من أحقاد وضغائن، ومن حسد ومكائد، تجعله يشكو حظه وينعي عبقريته ، لكن العجيب أنه يدمج القول ويصوغه في عبارة مقطرة مدهشة "أني بما أنا شاك منه محسود"؛ وهو ما يجعله أيضا نموذجا لنجاعة اللغة ونجاحها في بلورة تجارب الحياة. ويأتي البيت الأخير الذي يعلن فيه فداحة ثرائه وهباء حصيلته ليمثل ذروة المفارقة الكلية، وهي

التي تجسد معنى العيد لديه وقد سلبت منه البهجة، وغاب عنه الأحباب، ولم يطب فيه شراب، ففقد دلالته وأصبح جديرا بهذا الاستنكار الأولي " عيد بأية حال عدت يا عيد" في تلك الرؤية النقدية للحياة والمجتمع والتاريخ.

مقاربة شوقي للعيد

كان شوقى شديد الولاء للمتنبى، دائم القراءة فيه منذ مطلع شبابه، ويشهد الأمير شكيب أرسلان أنه لقيه أثناء بعثته في باريس يتأبط ديوان أبي الطيب المتنبى الذي يصحبه إلى كل مكان ، ومع أن ولعه قد توزع بعد ذلك على بقية الجدود من كبار الشعراء فإن عشقه الأول قد ظل يدور في فلك المتنبى ، ولن نلبث عندما نقرأ إحدى القطعتين اللتين كتبهما شوقى عن العيد أن نتبين ذلك بوضوح؛ فهو يقول في قصيدته بعنوان "الهلال":

سنون تعاد ودهر يعيد

لعمرك ما في الليالي جديد

أضاء لآدم هذا الهلال

فكيف نقول: الهلال الوليد

نعـــد عليـــه الزمـــان القريـــب

ويحـــصي علينـــا الزمـــان البعيـــد

عـلى صـفحتيه حـديث "القـرى"

وأيـــام "عـــاد" ودنيـــا "ثمـــود"

و"طيبـــــة" آهلـــــة بـــــالملوك

و"طيبـــــة" مقفـــرة بالـــصعيد

يـــزول بـــبعض ســـناه الـــصفا

ويفنـــى بـــبعض ســـناه الحديـــد

ومـــن عجـــب وهـــو جـــد الليـــالي

يبيـــــد الليـــــالي فـــــيما يبيـــــد

ومع أن المقطوعة ليست من قبيل المعارضة الصريحة – فهى ذات إيقاع مختلف، ودال قافيتها ساكنة – غير أنها تصدر عن روح مشبع بالذخيرة العتيقة لشعر المتنبى. فهى تتوقف عند جذر "العود" أيضا، وتحكم بأن الليالى – وهى تلد العجائب – لا تأتى حقيقة بجديد ، ثم ترصد حدقة شوقى الحساسة مشهد هلال الشهر الوليد في العيد كي تخلص منه إلى درس في الطبيعة

والتاريخ، وهما دائما مصدر إلهامه وينبوع شعريته على ما صرح به في مقدمة شوقياته وأكده في كل إبداعه. فهذه الطبيعة هي التي صحبت الإنسان منذ آدم عبر القرون والآماد، وهي التي تجعل حسه التاريخي متقدا ووعيه الإنساني مستوفزا شديد الانتباه لمتغيرات الأحداث. هنا تقوم المفارقة بين أطراف مختلفة، هي الزمن من ناحية والمكان والأحداث من ناحية أخرى ، فالهلال الذي يتراءى طفلا قد شهد في عمره الطويل من عجائب الدول والمخلوقات ما لا يمكن حصره، وذاكرة الشاعر تسترجع مخزونها التراثي في أخبار الأوائل، وتبعث مشاهد التاريخ المكتشف حديثا في طيبة التي نطقت حجارتها أوائل هذا القرن فقط وحكت من أخبار الحضارة الفرعونية ما لم يحكه كتاب من قبل.

تشف الأبيات إذن عن هذه الحكمة الجديدة لتضيف إلى سطور الحكمة القديمة ، لكن سهولة النظم عند شوقي لا تبلغ في إعجاز الصياغة وقوة التعبير مبلغ ما رأيناه عند المتنبي، وإن أفادت من تقنياته ذاتها في التقابل والتضاد وتوظيف المفارقات اللغوية؛ إذ يمضي قائلا:

يقولون يا عام قد عدت لي

فيا ليت شعري بماذا تعود؟

لقد كنت لي أمس ما لم أرد

فهل أنت لي اليوم ما أريد

ومن صابر الدهر صبري له

شكا في الثلاثين شكوى "لبيد"

ظمئت ومثلي بري أحق

كأني "الحسين" ودهري "يزيد"

تغابيت حتى صحبت الجهول

وداريت حتى صحبت الحسود

وهنا نرى مركبة المتنبى وهى تجر شوقى وراءها لا يستطيع فكاكا منها، مهما حاول أن يستحضر لبيد وشكواه من طول العمر، ويوظف قصة الحسين ومصرعه على يد جيوش يزيد بن معاوية. لقد أحاطت به كلمات المتنبى فطاردت عبارته، فإذا ظن نفسه قد اقتنص شيئا جديدا لم يجد في كفه غير هذا الهواء الذي يعبق بعطر الأجداد الأحباب.

بيد أن عيدية شوقي الحقيقية هي تلك القصيدة الأخرى التي جعل عنوانها "رمضان ولى" واجترح فيها الكشف عن وجهه

الصحيح في الدين والحكمة والوطنية ، ومع أنه لم يتعمد الرد على أبي الطيب في إهانته لولاة مصر وغمزه لأخلاق أهلها إلا أنه يبدو كما لو كان ينتصف لقومه ويثأر من شانئيهم، كما ينتصف للخمر التي قتلها المتنبي وأنكر فاعليتها في مغالبة أحزانه؛ يقول شوقي:

رمضان ولى، هاتها يا ساقي ... مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها ... وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعا ... إن كان ثم من الذنوب بواقي
بالأمس قد كنا سجيني طاعة ... واليوم من العيد بالإطلاق

هنا يعود شيطان الشعر لشوقى فلا يرى في العيد معناه اللغوي ولا دلالته على مرور الأيام مثلما فعل المتنبى من قبل. لا يهمه إلا أن رمضان قد انقضى، وآذن بتحرره من قيود السلوك وآداب الصيام ، وهو عاشق قد اشتد شوقه إلى محبوبه وطال انتظار محبوبه له؛ فهو جذل بمضى رمضان، متلهف على الشراب، لكنه قد استرد عافيته الشعرية في الصياغة البليغة: فالتقابل بين "ولى" و"هات"، وخلع الشوق في الشطر الثاني على الخمر التى تسعى للقاء حبيبها، والتضاد بين الأكثر والأقل، والأمل في غفران

الغفار، كل ذلك يجعل التحرر الأخلاقى في الأبيات نظير التحرر الإبداعى، ويضفى على العيد معنى لم يخطر ببال أبي الطيب المحزون، وهو معنى الانطلاق والتحرر من القيود.

ضحكت إلي من السرور ولم تزل

بنت الكروم كريمة الأعراق

هات اسقنيها غير ذات عواقب

حتى نراع لصيحة الصفاق

صرفا مسلطة الشعاع كأنما

من وجنتيك تدار والأحداق

حمراء أو صفراء، إن كريمها

كالغيد، كل مليحة بمذاق

وحذار من دمها الزكي تريقه

يكفيك - يا قاسي - دم العشاق

لا تسقني إلا دهاقا، إنني

أسقى بكأس في الهموم دهاق

فلعل سلطان المدامة مخرجي

من عالم لم يحو غير نفاق

ومن الطريف أن الثقافة العربية قد احتفلت بالخمريات كما لم تحتفل بها أية ثقافة أخرى ، فهى باب عريض فى الشعر بالغ الأهمية والثراء، وبرع فيه كبار المبدعين، وتخصص منهم أبو نواس بديوان كامل، واتخذ منه الشعراء الصوفيون مصدرا للرموز والمجازات، وظلت القصائد التى تراق لبنت الكروم مصدرا لفتنة الشعر وجمال التصوير. وتأتى هذه الأبيات لتشهد لشوقى بقوة الصياغة وحلاوة الأداء ، فهو عندما يعدد أشكال الخمر وألوانها يقرنها بصنوف الجمال الأنثوى للغيد الحسان، "كل مليحة بمذاق"؛ وهو عندما يحذر ساقيه من سكبها هدرا يناديه برقة قاهرية عجيبة تذكرك بالكلمات التى ستنشدها أم كلثوم فيما بعد، "يكفيك يا قاسى دم العشاق" وهو عندما يطلب من الكؤوس أشدها ابتلاء "الدهاق" لا ينسى أن يعادل بها جرعاته من الهم والحزن. لكنه لا يمضى فى إثر المتنبى ولا يكرر معادلته، بل يقدم رؤيته الخاصة لعالم تضحك فيه المدام سرورا، وتحلو به الأيام بمذاقها المتفرد المعشوق، ويتغلب فيه سلطان المدامة على مرارة أخلاق النفاق التي تحرم الإنسان لذة الصدق ومتعة الحياة ، غير

أن الأبيات التالية هي التي تتولى الكشف عن معشوق شوقي الحقيقي:

وطني أسفت عليك في عيد الملا

وبكيت من وجد ومن إشفاق

لا عيد لي حتى أراك بأمة

شماء راوية من الأخلاق

ذهب الكرام الجامعون لأمرهم

وبقيت في خلف بغير خلاق

أيظل بعضهم لبعض خاذل

ويقال: شعب في الحضارة راق

وإذا أراد الله إشقاء القرى

جعل الهداة بها دعاة شقاق

وأبرز ما يقابلنا في هذا المقطع هو تحويل العام إلى خاص، تحويل الوطن إلى ياء المتكلم، وياء القارئ أيضا. ويتزامن هذا مع حركة مضادة تتمثل في تحويل العيد من شيء شخصي يشعر به كل فرد على طريقته إلى أمر وطني عام يتمثل في ارتقاء أوضاع الأمة السياسية والأخلاقية ، ومع أن قصائد شوقي غير مؤرخة للأسف

– على سهولة ذلك لتوفر المصادر – فإننا نتوقع أن هذه المقطوعة قيلت في فترة احتدام الخلاف بين الأحزاب في مصر، وهو ما أوشك أن يهدد مصير القضية الأساسية وهي جلاء المحتل ؛ فقد تصور الناس أن هذا الخلاف – وهو علامة ديموقراطية سليمة – يتنافى مع مقتضيات وحدة الرأي في القضايا المصيرية ، ولا بد أيضا أن نلاحظ بعض الضعف الظاهر في البيت الثالث حيث يحاكي شوقي قول الشاعر القديم:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ولا بد أيضا أن نلاحظ طابع الحكمة المفتعل في البيت الأخير، حيث يصبح مصير القرى الشقى منوطا بتحول دعاة الوطنية إلى مصدر للشقاق. ومهما كان الطابع الدلالي لهذه الأبيات مثارا للنقاش والجدل فإن مستواها الشعري ينبئ عن قدرة تعبيرية فائقة، يحرك بها الشاعر عواطف قرائه، ويبلور رؤيتهم للخطة السياسية التي يعيشونها، مزاوجا بشكل متوازن بين موقفه الفردي ومقتضيات التعبير عن الوجدان الجماعي في لحظة تاريخية محددة.